نظرية المعرفة عند جون لوك

أ. زاهيا شعبان امبية
كلية الآداب – جامعة الزاوية

مقدمة:

يعد الفيلسوف جون لوك (john locke) (1632-1704) من أهم الفلاسفة الانجليز، حيث ترك أثراً كبيراً على الفلاسفة التجريبيين من أمثال جورج باركلي وديفيد هيوم وجون استوارت مل، الذين يقرِّون بتأثيره الكبير فيهم، من خلال طريقته في تناول مسألة نظرية المعرفة ورد المعرفة إلى التجربة.

ويعد المؤرخون أنَّ كتاب جون لوك (محاولة في الفهم البشري) الذي صدر سنة 1690 أول محاولة جدية وعلمية في مجال نظرية المعرفة، إذ يسعى هذا الكتاب إلى شرح مفهوم المعرفة البشرية، وتحليل الفكر الإنساني وطبيعة المعرفة، وبالرغم من أنَّ الفلاسفة السابقين له قد تناولوا نظرية المعرفة بالبحث والدراسة، إلا أنَّ بحث لوك في نظرية المعرفة تميز بالجدية والعمق حيث تصدى لوك لنظرية الأفكار الفطرية التي كانت محل إجماع عدد كبير من الفلاسفة والمفكرين، وكانوا يعدونها قضية مسلَّمة لا تحتاج إلى نقاش ولا برهان،إلا أنَّه رفض ذلك وناقش مختلف حجج الفلاسفة المؤيدين لهذه النظرية، وفنَّد الأسس التي تقوم عليها نظريتهم، وعدَّ كل معلومات الإنسان مصدرها التجربة، وأنَّ عقل الإنسان صفحة بيضاء لحظة ولادته، وأنَّ ما فيه من معلومات وأفكار مصدرها التجربة.

ولفلسفة لوك أهمية كبيرة في التاريخ لأنَّه طبَّق الفلسفة التجريبية على نظرية المعرفة، وكذلك طبَّق المنهج الاستقرائي في بحثه عن أصل المعرفة البشرية بعكس الفلاسفة الذين كانوا يستهلون المنهج القياسي في نظرية المعرفة، لذا طبَّق لوك المنهج الاستقرائي، وكما هو معروف أنَّ المنهج الاستقرائي منهج علمي، يعد من

أهم العوامل التي ساعدت على تطوير العلم الحديث. وقد شهد عصر لوك تطوراً كبيراً في مجال العلم بفضل العلماء أمثال: غاليليو ونيوتن وبريل ... وغيرهم، حيث تأثر لوك بالعلم الحديث، وسعى لاستخراج النتائج الفلسفية للعلم في عصره.

وتعد نظرية المعرفة من الأقسام الأساسية في الفلسفة؛ لأنَّ معرفة كيف نعرف؟ وقيمة ما نعرف ووجود معرفتنا بالأشياء. كل ذلك يدخل ضمن مجال نظرية المعرفة التي تعني: البحث في طبيعة المعرفة، وأصلها وقيمتها ووسائلها وحدودها، ويعد لوك أول من درس نظرية المعرفة في العصر الحديث، دراسة علمية ومستقلة ودعا إلى دراسة حدود المعرفة البشرية ومعرفة مدى قدرة العقل البشري على الحصول على المعلومات التي يسعى إليها واكتسابه للمعرفة الصحيحة والإجابة عن المشكلة المطروحة.

يهدف هذا البحث إلى التعرُّف على الملامح العامة لفلسفة نظرية المعرفة عند لوك، كأحد أهم فلاسفة المذهب الواقعي الحسي في الفلسفة، وتحديد أهم الأسس التي قامت عليها نظرية المعرفة، والتعرُّف على أنواع الأفكار والمعارف وأنواعها وطبيعتها وتحليلها، كما يهدف هذا البحث إلى الإجابة عن التساؤلات الآتية: ما مفهوم نظرية المعرفة عند لوك؟ ما هي أنواع المعارف وحدودها؟ ما هي الأفكار وكيف صنفها جون لوك؟

ولذلك استخدمت الباحثة المنهج التحليلي للوقوف على أهم الجوانب الفلسفية عند جون لوك، وأهم المبادئ الأساسية التي قامت عليها نظرية المعرفة عنده، والفكرة المتضمنة فيها بالدراسة والتحليل.

أولاً التعريف اللغوي والاصطلاحي لنظرية المعرفة: وردت كلمة المعرفة في مادة (عرف) لتدل على المجازات، قال الزمخشري: (لأعرفَّن لك ما صفت: أي لا جازينك)[1].

كما أنَّ في مادة عرف حروف (عرف)، ومن ثم كان هذا المعنى مناسباً، حيث وردت كلمة "المعرفة لتدل على ما هو عال مكرم، طيب، إذ يقال للقوم تلثموا: غطوا معارفكم ... وتقول: بنو فلان غر المعارف... وتقول ما طيب عرفه – بفتح العين– وهو الأنف وما ولاه، وقبل الوجه كله"[2].

والمعرفة تدل على ما ارتفع من الشيء، والمعرفة بمعنى المجاراة إنَّما تتضمَّن العلم بحال المجازي وقدره، وفيها ارتفاع لقدر المعرفة على العارف، ومن هنا كانت معرفة الله تعالى العلم اليقيني به، وعمل ما يناسب مع قدرته سبحانه، والمعرفة تتمثل في معانيها الاعتراف والإقرار وهما علم وأدلة[3].

ونظرية المعرفة مركَّبة من لفظين: نظري وتعني بها قضية أو تركيب عقلي مؤلف من تصورات فلسفية[4] وتهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات، وتطلق على ما يقابل الممارسة العلمية، كما أنَّها تطلق أيضاً على ما يقابل المعرفة العامية، تلك المعرفة التي تفيد بالنتائج العلمية وتظل بمعنى جزئية[5].

والنظرية: تعني قضية تثبت ببرهان، وهي عند الفلاسفة تركيب عقلي مؤلف من تصورات مسبقة تهدف إلى ربط النتائج بالمبادئ، وقد يقصد بالنظرية اللفظ المرادف للتنسيق: أي أنَّها تطلق على مجموعة المسلَّمات والمبرهنات، ولا تقال على قضية واحدة من قضايا النسق، وقد يراد بالنظرية تصورات مؤلفة تأليفاً عقلياً تهدف إلى ربط النتائج بالمقدمات، وقد يقصد بها فرض عملي يمثِّل الحالة الراهنة للعلم، ويشير إلى النتيجة التي تنتهي عندها جهود العلماء أجمعين في حقبة من الزمن[6].

أمَّا المعرفة فقد اختلف الباحثون في تعريفها أو تحديدها، فبعضهم يرى أنَّ المعرفة هي فعل الذات العارفة في إدراك موضوع وتعريفه بحيث لا يبقى فيه أي غموض أو التباس، حيث يرى جميل صليبا "أنَّ المعرفة هي إدراك الأشياء وتصورها"[7].

أمَّا القدماء فقد وضعوا لها عدة تعريفات منها:

1- المعرفة: إدراك الشيء بإحدى الحواس.

2- المعرفة: هي العلم مطلقاً تصوراً كان أم تصديقاً.

3- المعرفة: إدراك البسيط سواء كان تصوراً للماهية أو تصديقاً بأحوالها .

4- المعرفة: إدراك الجزئي سواء كان مفهوماً جزئياً، أو حكماً جزئياً.

5- المعرفة: هي إدراك الجزئي عن دليل .

6- المعرفة: هي الإدراك الذي هو بعد الجهل[8].

ويطلق لفظ المعرفة عند المحدثين على عدَّة معان جاءت على النحو التالي:

الأول: هو الفعل العقلي الذي يتم به حصول صورة الشيء في الذهن، سواء كان حصولها مصحوباً بالانفعال أو غير مصحوبة، وفي هذا المعنى إشارة إلى أنَّ في المعرفة تقابلاً واتصالاً بين الذات المدركة والموضوع المدرك.

الثاني: هو الفعل العقلي الذي يتم به النفوذ إلى جوهر الموضوع لتفهم حقيقته، بحيث تكون المعرفة الكاملة بالشيء خالية ذاتياً من كل غموض والتباس، أو محيطة موضوعياً بكل ما هو موجود للشيء في الواقع[9].

وهذه المعاني أو التعريفات كافية في إعطائنا تصوراً حول موضوع المعرفة بأنَّها لا تعدو أنْ تكون معرفة حسية مشخَّصة، وهي أدنى المعارف، وإمَّا أنْ تكون معرفة عقلية مجرَّدة، وهي أعلى المعارف.

وإذا كانت المعرفة تامة كانت مطابقة للشيء تمام المطابقة، وإذا كانت غير تامة كانت مقصودة على الإحاطة بجانب واحد من جوانب الشيء، وللمعرفة التامة صورتان إحداهما ذاتية: وهي التي يتم بها تصور الشيء تصوراً واضحاً دون غموض أو التباس، والأخرى موضوعية: وهي التي يكون فيها تصور الشيء مطابقاً لما هو عليه في الحقيقة وكثيراً ما يراد بالمعرفة مضمونها ونتيجتها، لا العقل الذهني الذي تتم به، ومنه قولهم المعارف الإنسانية[10].

وبمعنى أوضح فالمعرفة تدل على ما هو موضوع تصور منهجي متناسق ومنظَّم تابع في صورته لبعض المواصفات العلمية التي يجريها الناس، إذاً فنظرية المعرفة هي دراسة منهجية لقضية العلم، أو مسألة المعرفة بدراسة ماهيتها وإمكاناتها وطبيعتها وطرق الوصول إليها وقيمتها وحدودها.

ثانياً- أنواع الأفكار: يرى لوك أنَّ الأفكار هي طائفة كبيرة من التصورات والمفاهيم بصرف النظر عن مدى عموميتها، فالأفكار عنده تتضمَّن كلمات مثل البياض، الصلابة، الحلاوة، التفكير، الحركة، الإنسان[11]، لهذا جعل من الأفكار محور كتابه: (مقالة في الفهم البشري) وبالتالي محور نظريته المعرفية، فالأفكار هي موضوع للانتباه أو الوعي[12]، إذ يعتقد جون لوك فيما يتعلق بالأفكار أنَّ بعضها بسيط والبعض الآخر مركَّب، وأنَّ هذه المسألة مهمة، ليس لأنَّ هناك بعض الموضوعات تتصف بالبساطة والبعض الآخر يتصف بالتركيب، وإنَّما هذه التفرقة تساعد على التمييز بين الحالات التي تكون فيها عقولنا فعَّالة[13]، ولذلك فقد قسم الأفكار إلى:

1ــ الأفكار البسيطة: وهي الأفكار المرتبطة بصفات الأشياء أو الشيء المحسوس مثل الصلابة والبرودة والامتداد والشكل[14]، ففكرة الصلابة مثلاً: تلقاها عن طريق اللمس لدينا، وهو ينبع من مقاومة القبول التي وجدها في الجسم إلى المدخل لأي هيئة أخرى في مكانها حيث لا توجد أي فكرة تتلقاها باستمرار أكثر من الإحساس بالصلابة[15]، فالأفكار البسيطة يتلقاها الذهن مباشرة من الإدراكات الحسية.

ويقسِّم لوك الأفكار البسيطة إلى أربعة أنواع:

أ. أفكار بسيطة نحصل عليها عن طريق حاسة واحدة، أي صادرة عن إحساس واحد معيَّن مثل اللون والأصوات والصلابة.

ب. أفكار بسيطة نحصل عليها عن طريق أكثر من حاسة واحدة، أي صادرة عن حواس متعدِّدة مثل: أفكارنا عن المكان والامتداد والشكل والحركة والسكون، وتكون هذه الأفكار البسيطة عن طريق حاستي اللمس والبصر.

ج. أفكار بسيطة نحصل عليها عن طريق التأمل مثل: الإدراك والتفكير.

د. أفكار بسيطة نحصل عليها عن طريق الإحساس والتأمل معاً مثل الوجود والقوة والوحدة[16].

2ــ الأفكار المركَّبة: وهي التي يكوِّنها العقل من خلال العمليات العقلية التالية: تركيب ومقارنة وتجريد الأفكار البسيطة، فالعقل في الأفكار البسيطة كان سلبياً، أمَّا في الأفكار المركَّبة فالعقل إيجابي وفعَّال، ويربط الأفكار في أشكال مختلفة يؤلف أفكار مركَّبة(17)، ويذهب لوك إلى أنَّ العقل لا يستطيع أنْ يبتكر فكرة بسيطة واحدة، كما أنَّ الأعمى ليس لديه فكرة عن اللون، فمهما حاول لا يستطيع إدراك اللون(18).

وتنقسم الأفكار المركَّبة إلى ثلاثة أنواع:

أ. أفكار مركَّبة عن الأعراض: وهي تدل على صفات غير موجودة لذاتها، بل في غيرها مثل الجمال فأنَّنا لا نجد في الطبيعة شيء بذاته يسمَّى جمال. بل تتصف به الأشياء الجميلة مثل الزهرة[19]، فالعقل يحصل على هذا النوع من الأفكار المركَّبة عن طريق إضافة فكرة بسيطة واحدة أكثر من مرَّة مثل فكرتنا عن العدد العشرين، ينتج عن طريق إضافة الواحد عشرين مرة، أو نحصل عليها عن طريق تركيب مجموعة من الأفكار البسيطة المتنوعة مثل فكرتنا التي تتم عن طريق تركيب الأفكار البسيطة بواسطة اللون والشكل والجسم[20].

ب. أفكار مركَّبة عن الجواهر: وهي تدل على أشياء موجودة بذاتها توصف عن طريق الأعراض[21]، وتوجد نوعان من الأفكار المركَّبة عن الجواهر: جواهر

مفردة مثل فكرتنا عن إنسان أو جواهر جمعية مثل فكرتنا عن الجيش أو الإنسان(22).

ج. أفكار مركَّبة عن العلاقات: وهي الأفكار التي تعبِّر عن العلاقات بين الأشياء(23)، فالعقل يحصل على هذا النوع من الأفكار عندما يقارن بين فكرة بسيطة أو مركبة، وبين أفكار أخرى مثل فكرة الزوج والأبوة والأكبر والأصغر(24).

ثالثاً- الصفات الأولية والصفات الثانوية:

يقول لوك: "بإمكاننا التمييز بين نوعين من الكيفيات التي تخص الأجسام، أو تلك الكيفيات التي لا تنفصل عن الأجسام، التي أسميها كيفيات أولية مثل الامتداد والحركة، وهي التي تمدنا بالأفكار البسيطة، وكيفيات أخرى مثل الألوان والأصوات، التي أطلق عليها اسم الكيفيات الثانوية"[25].

من هذا القول ندرك أنَّ لوك يرى أنَّ هناك نوعين من الصفات التي تميز الأشياء وهي: الأولى أولية، والأخرى ثانوية وهي كالتالي:

أـ الصفات الأولية: هي مجموعة من الصفات التي يمتلكها الجسم في حد ذاته، ولا يمكن أنْ تنفصل عنه، وتؤثر على العقل عن طريق القوة مثل: الامتداد والشكل أو الصلابة، فإذا قمنا بتقسيم جسم ما إلى أجزاء صغيرة لا يضيع الامتداد أو الشكل أو الصلابة، بل تظل هذه الصفات كما هي حتى لو أصبحت عبارة عن مزيج واحد، فهي تحافظ على خصوصياتها ومميزاتها[26]، وهذا يعني أنَّها مجموعة من الصفات التي لا تنفصل عن الجسم، أي أنَّها تبقى قائمة في الأشياء ذاتها، وتبقى قائمة حتى في أجزاء الجسم، فحبة القمح مثلاً إذا قمنا بتقسيمها وتجزئتها إلى عناصر صغيرة سوف تحتفظ بذات الصفات التي تمتلكها في الأصل.

ويقال أنَّ الصفات الأولية موجودة في الأشياء المادية وبدونها[27]، حيث يرى لوك أنَّه "لا يمكن أنْ تنفصل عن الجسم في أي حالة من حالاته، فلو أنَّنا قمنا

بتقسيم أي موضوع مادي إلى أجزاء بقدر ما نستطيع أنْ ندركها فأنَّها تستمر في امتلاك نفس الصفات الأولية التي أشرنا إليها، ولذلك فاعتقاد لوك في الحقيقة المستقلة للصفات الأولية مستمد بوضوح من معرفته بالفيزياء والكيمياء[28]، فإنَّ كتلة من النار والثلج وعددها وشكلها هي صفات موجودة فيها بالفعل، لكن الضوء والحرارة والبياض أو البرودة لا تكون صفات موجودة فيها بالفعل مثلما لا يكون المرض أو الألم موجوداً في الغذاء ذاته[29]، فالصفات الأولية مستقلة في وجودها عن الذات وتوجد قائمة في الخارج فيما يطلقون عليه اسم المادة أو الجوهر المادي، فإذا كنا نسلِّم بسهولة بأنَّ حلاوة قطعة من السكر ليست قائمة في السكر، بل في مذاقها الحلو على اللسان، وفي ذاتنا بهذه الحلاوة، فأنَّنا لا نستطيع أنْ نقول نفس الشيء عن حجم هذه الكرة، أو عن طول هذه المائدة المستطيلة الممتدة أمامنا. يبدو أنَّ هذه الصفات الأخيرة كلها موجودة في الخارج وليس لذاتنا سلطان عليها، فهذه الصفات الأخيرة صفات واقعية، أمَّا حلاوة السكر فهي صفة ذاتية بمعنى أنَّ الناس مثاليون فيها بحلاوة السكر وواقعيون فيها بتعلقهم بحجم المائدة وشكلها وامتداداتها[30].

وعلى ذلك فإنَّ لوك. بل المدرسة الانجليزية كلها تأخذ بالمذهب الواقعي، حيث يعتقد لوك أنَّ الأفكار البسيطة التي تحدث في عقولنا من اتصالها بالأشياء ليست وهماً صوَّره لنا الخيال، وإنَّما هي نتيجة طبيعية مطردة للأشياء الخارجة عنا. إذن فهي تطابق أصولها الخارجية لأنَّها تقدم لنا الأشياء بالصورة التي في مقدورها أنْ تكونها في أذهاننا[31].

ب ــ الصفات الثانوية: هي ليست مرتبطة بالجسم، بل هي قوة متضمنة فيه وتعمل على إنتاج إحساسات معينة في العقل مثل اللون و الرائحة و الطعم، فالجسم يمكن أنْ يتغير لونه وطعمه ورائحته، ويبقى مع ذلك نفس الجسم، وتكون هذه الصفات الثانوية هي تأثر العقل به[32]، ولهذا فأفكار الصفات الثانوية لا تشبه صفات

الموضوعات الفيزيائية الحقيقية عن طريق تجارب بسيطة، لذلك فإذا قمت بكسر أية لوزة أو سحقها "فأنَّك ستجد أنَّ اللون الأبيض الناصع يستبدل إلى لون غامق، وسيتحول الطعم الحلو إلى طعم زيتي، فما عساه أنْ يكون التبدل الحقيقي الذي يمكن أنْ يضعه دق يد الهاون في أي جسم سوى أنَّها تبدل نسيجها وأفرض أنَّ إحدى يديك ساخنة، والأخرى باردة، وأنَّك وضعتهما معاً في إناء الماء المعتدل في درجة الحرارة، كما يسجلها ترمومتر، فإنَّ الماء سيبدو في هذه الحالة بارداً ليد، ودافئاً ليد أخرى وبذلك لا يمكن أنْ تتشابه إحساسات اليدين في صفاتهما وهما موجودتان في الماء، فهما لا يمكن أنْ يكونا شيئاً سوى أثار زيادة أو قلة حركة الأجزاء الصغيرة لأجسامنا تسببها جزئيات الماء"[33]، فهي صفات لديها القدرة على إحداث إحساسات متعدِّدة فينا بواسطة صفاتها الأولية عن طريق الكتلة والشكل والبناء، أو التركيب وحركة أجزائها تغير المحسوسة كما ذكرنا مثل: الألوان والأصوات والطعوم والروائح ونعومة الملمس أو خشونته، فهي تحدث فينا بفعل الدقائق غير المحسوسة في حواسنا أو على نحو ما نقول اليوم بتأثير الأشعة الضوئية التي تسقط على شبكية العين أو الموجات الصوتية التي تصل إلى طبلة الأذن أو الانبعاثات الكيميائية، التي تصل إلى شعيرات الشم في الأنف[34].

فهي إذن صفات لا توجد في الأشياء ذاتها، بل مجموعة قوى في الجسم تحدث فينا هذه الإحساسات بواسطة الصفات الأولية كالإحساس باللون والرائحة والذوق، أي صفات ترتبط بالذات لا بالموضوع.

يقول لوك: "إنَّ ما هو حلو وأزرق أو حار في الفكر ليس إلا كتلة وشكلاً وحركة معينة الأجزاء غير محسوسة في الأجسام ذاتها"[35]، ولذلك فليس الاحمرار أو الحلاوة التي تنشأ لدينا عن شيء ما، صفة موجودة في الشيء نفسه، وإنَّما هي نتيجة لعلاقة اتصال الشيء بحواسنا، فكما أنَّ الشمس تبعث الحرارة في الشمع

فتذيبه مع أنَّ السيولة التي استحدثت الشمع ليست موجودة في الشمس، كل ما في الأمر علاقة قوة في الشيء بحاسة من حواسنا[36].

هذا يعني أنَّها قوة في الجسم بفضل ما تحمله من صفات أولية تحدث تغييراً في شكل أو تركيب أو حركة جسم آخر، بحيث أنَّ هذا الجسم الآخر تحدث حركته على حواسنا تأثيراً لم يكن موجوداً سلفاً مثل: قدرة الشمس على إذابة الشمع وتحويله إلى سائل، كأنَّ في الشمس قوة من أجل أنْ نكّون فكرة الانصهار أو الذوبان في أذهاننا بعدما كانت لدينا فكرة عن صلابة الشمع، بمعنى أنَّها تكوَّنت لدينا فكرة جديدة لم نكن نذكرها من قبل.

بهذا اقترب لوك كثيراً بنظريته هذه من العلوم البحثية من غير قصد في الصوت والضوء والحرارة ناتج عن موجات مختلفة تخرج من الأجسام الجزئية، التي تنبِّه الحواس وبذلك تتم لنا رؤية الشيء أو سماع صوته أو الإحساس بحرارته، ويعتمد ذلك على طول الموجات فهي نسبية تختلف باختلاف أطول الموجات، كما تختلف باختلاف الأشخاص من شخص لآخر حسب استعداداتهم وقدراتهم من أجل تلقِّي هذه الموجات[37].

رابعاً-أنواع المعرفة: تنقسم المعرفة عند لوك إلى ثلاثة أنواع، وتختلف درجة اليقين في كل معرفة باختلاف الطريقة التي يحصل الإنسان عليها، وتتمثَّل أنواع المعرفة في الآتي:

1- المعرفة الحدسية: وهي المعرفة البديهية – الواضحة بذاتها – التي لا تحتاج إلى برهان، فالأبيض غير الأسود، والمثلث غير المربع، والإنسان غير الحيوان، وفي الرياضيات العدد (5) أكبر من العدد (2) وأصغر من العدد (10)، وذهب لوك إلى أنَّ جميع معارفنا تعتمد على هذا النوع من المعرفة[38]، والمعرفة عبارة عن إدراك الاختلاف، أو التوافق بين فكرتين بصورة مباشرة وبدون تدخُّل أية فكرة أخرى[39].

2- المعرفة البرهانية: هي إدراك اختلاف أو توافق بين فكرتين يتوسط فكرة أو أفكار أخرى، ولا يمكن أنْ نصل إلى هذا النوع من المعرفة بطريقة مباشرة مثل المعرفة الحدسية. بل عن طريق المقارنة بأفكار أخرى تكشف لنا العلاقة بين الفكرتين، وسمَّى لوك هذه العملية بالاستدلال العقلي، مثلاً تتطلب معرفة العلاقة بين زوايا المثلث، وبين زاويتين قائمتين الاستعانة بزوايا أخرى، تساوي زوايا المثلث من جهة، وتساوي زاويتين قائمتين من جهة أخرى، وبذلك تتكشَّف العلاقة بينهما(40)، والمعرفة بالبرهان تعتمد على المعرفة بالحدس، لأنَّ إدراك الاتفاق أو الاختلاف بين فكرتين عن طريق الاستعانة بالأفكار الأخرى لا يتم إلا عن طريق الحدس[41].

3- المعرفة الحسية: هي المعرفة التي لدينا عن الأشياء الواقعية (الأشياء المحسوسة)، وهي تعتمد على الموجودات التي خارج العقل البشري بعكس المعرفة الحدسية البرهانية اللتين نحصل عليهما عن طريق عمليات الفصل للأفكار. والمعرفة الحسية في نظر لوك لا تقل يقينية عن المعرفة الحدسية والمعرفة البرجماتية، وتصل عن طريق هذه المعرفة إلى العالم الخارجي[42]، فالحواس يؤيد بعضها البعض، فالذي يرى النار يستطيع أنْ يلمسها دون أنْ يشك في وجودها، وحينئذ يحس ألماً لا يمكن أنْ يحس مثله لو كان إدراكه مجرَّد تصور. على أنَّ معانينا ليست صور الأشياء أو أشباهها، وإنَّما هي علامات دالة عليها[43].

ويعتقد لوك أنَّ وجود الأشياء التي ليست حاضرة مباشرة أمام حواسنا قد تكون مثار للشك، فلا يمكن القول بأنَّها معروفة، ولكن عندما تصبح حاضره حضوراً مباشر لحواسنا، فإنَّنا سنزود بدليل يزيد جميع شكوكنا، ويذهب إلى القول أنَّه يوجد اختلاف بين الأفكار التي نذكرها أو نتخيلها فحسب، وبين الأفكار التي تتوارد بالفعل إلى ذهننا عن طريق الحواس[44]، لذلك فهو يقول: "إنِّي أسأل أي شخص لم يشعر بوعي منيع بوجود اختلاف في حالة المدركات بين مشاهدة الشمس في

الصباح والتفكير فيها في المساء، وبين شمس زهرة عطرة كالوردة والقرنفلة والاكتفاء بالتفكير في رائحتها وعبقها"[45]، وبذلك فهذا النوع من المعرفة هو أقل يقيناً من المعرفة الحسية البرهانية لكنها أكثر يقيناً من المعرفة الظنية، وهذا النوع من المعرفة يساعدنا على معرفة الأشياء الموجودة في العالم الخارجي.

4- المعرفة الاعتقادية: هذه المعرفة تأتي إلى الإنسان عن طريق الإيمان بالمعتقدات الدينية، ولا يمكن البرهنة عليها لسموها عن مستوى مداركنا وحواسنا، إنَّما نتمسَّك بها لأنَّها تعد سراً من أسرار الإيمان[46]، فلا نستطيع الوصول إليها لا بحواسنا ولا بمدركاتنا، فهي تنشأ عن طريق الإيمان بمعتقدات دينية معيَّنة، فنحن نحصل على هذه المعرفة من الأديان والكتب المقدَّسة المرسلة إلينا من رب العالمين، وكان من الطبيعي أنْ يسلِّم بها لوك تسليماً بسبب عجزه عن البرهان، فالعقل قاصر عن بلوغ ماهية الاعتقادات الدينية ومنها وجود الله تعالى نفسه[47].

خامساً- حدود المعرفة: حدَّد لوك حدود المعرفة الإنسانية، إذ يرى أنَّ الإنسان لا يستطيع أنْ يتعداها إلى أبعد منها، وذلك لأنَّ معرفتنا لا تمتد لأبعد ما لدينا من أفكار(48). وتمثلت حدود المعرفة في الآتي:

1ــ لا يمكن أنْ تتجاور معرفتنا ما نستطيع إدراكه من توافق أو عدم توافق بين الأفكار بواسطة الحدس أو الاستبدال أو الإحساس[49]، ولا نستطيع القول إنَّ المعرفة هي لا شيء سوى إدراك ما بين كل فكرة من أفكارنا والأفكار الأخرى من توافق أو اختلاف أو تنافر، وهذا هو كل ما يتعلق بها، وحيثما يوجد هذا الإدراك توجد معرفة وعندما لا يوجد فإنَّنا نشعر بقصور المعرفة[50].

يلزم ممَّا تقدَّم أنَّ المعرفة البرهانية أو العقلية لا يمكن أنْ تتناول كل أفكارنا لأنَّنا لا نستطيع دائماً أنْ نجد فكرة وسيطة تربط بين فكرتين في برهان، وفي هذه الحالة لا نحصل على المعرفة ولا على البرهان.

2ــ المعرفة البديهية لا تمتد لتشمل جميع العلاقات بين جميع أفكارنا.

3ــ المعرفة الحسية لا تمتد أبعد من وجود الأشياء الماثلة أمام حواسنا بالفعل فإنَّها أضيق من كلا النوعين المتقدمين من المعرفة، فحاسية المعارف أضيق من التوصل إلى المعرفة الحسية التي لا تعتد بوجود شيء في الواقع الحالي، إلا إذا تم الشعور به عن طريق الحواس الخمسة[51].

4ــ اتجه لوك إلى البحث إلى أي مدى تمتد معرفتنا عندما تكون مستمدة عن طريق الحدس، أو البرهان واهتدى إلى نتائج أشد انحساراً من النتائج التي اهتدى إليها العقلانيون، فمعرفتنا بلا هوية، والتنوع في الأفكار يمتد بقدر أفكارنا، لذلك فأنَّه لدينا معرفة حدسية بهوية جميع أفكارنا الواضحة والاختلاف بينها، فلا شيء أكثر وضوحاً من قولنا بأنَّ اللون الأبيض والدائرة ليسا هما اللون الأحمر والمربَّع.

5ــ رأى لوك أنَّ معرفتنا محصورة في برهان العلاقات بين الأفكار التي تتوافر لهم بحكم ما بين تصوراتها من ترابط، وما يترتب عليها من متضمنات وتعتمد هذه الحقائق إلى حد كبير على حقائق الرياضيات والأحكام الأخرى التي نسميها الآن الحقائق التحليلية أي الحقيقة بحكم معاني المصطلحات المستخدمة، وهي لا تمثل أي شيء موجود مستقلاً عن أفكارنا.

6ــ يرى لوك أنَّ معرفتنا قاصرة للغاية، فباستطاعتنا أنْ نلحظ اشتراك أفكار بسيطة مختلفة في الحدوث، وقد تتضمَّن فكرتنا عن نوع ما من الشيء المركَّب مجموعة من الأفكار البسيطة، وغالباً لا يكون بمقدورنا أنْ نعرف هل ترتبط هذه الأفكار ارتباطاً ضرورياً كل منها بالأخرى[52].

7ــ إنَّ الأفكار البسيطة التي تتألف منها الأفكار المركَّبة عن الجواهر قد صيغت بحيث لا تحمل في طبيعتها أية روابط ضرورية بالأفكار البسيطة، أو أي تنافر معها. ومن هنا نستخلص أنَّه ليس باستطاعتنا الاعتماد على الحدس أو البرهان في تحديد العلاقة الضرورية المتبادلة بين الأفكار، وهي تقتصر عن الإنصاف بكونها معرفة عامة؛ لأنَّ الأفكار التي تربط بينها غالباً ما يتعذر إدراكها حدسياً أو برهنة

ضرورة ارتباطاتها، ففي حالة الذهب نجد أنَّ قوة البقاء في النار دون أنْ يتآكل، هي فكرة تلازم باستمرار وترتبط بنوع معيَّن من شيء أصفر اللون، وله ثقل ومرن وقابل للسحب والطرق وقابل لذوبان[53].

8ــ أنَّ مجال معرفتنا محصور في نظر لوك؛ لأنَّه يفترض أنَّ كل ما كنا على دراية به لا يزيد عن أفكارنا، ولا يمتد إلى الأشياء ذاتها، وأنَّ جميع أفكارنا إمَّا مستمدة من الإدراك أو خالية من المضمون، ولا يمكن كالحكم على قضية معيَّنة أنَّها تمثل معرفة، إلا إذا اتضح ذلك وتم التأكيد عليها إمَّا بالحدس أو بالبرهان.

سادساً- نقد نظرية المعرفة عند لوك: تعرضت نظرية لوك في المعرفة إلى كثير من النقد الذي وجهه فلاسفة كثيرون، ومن أهم نقاط النقد ما يلي:

1. أنَّ لوك جعل للمعرفة مصدرين أساسيين هما المصدر التجريبي والمصدر الحدسي، وهما مصدران متضادان مختلفان.

2. أصاب النسق الفلسفي المعرفي عند لوك شيء من الخلط والاضطراب حتى أنَّه بدلاً من تحقيق معرفة تجريبية نفسية جعلها معرفة إنسانية قاصرة بسبب عدم كفاية الأفكار، وذهب أيضاً إلى إنكار مذهب الثنائية بعد إثباته[54]، وهذا التناقض واضح بين تقرير لوك أنَّ التجربة هي المصدر الوحيد للمعرفة، ثم تقريره في مكان آخر أنّ معرفة الله تقوم على البرهان[55]، دون أي دليل مادي.

3. طريقة لوك في مناقشة وجود الأفكار الفطرية لم تكن علمية؛ لأنَّ من الصعب أنْ تحصل على معلومات حول إذا كان الأطفال البلهاء يعرفون الأفكار الفطرية بشرط أنْ عرضت لهم في أشكال محسوسة تتناسب مع عقلياتهم[56].

4. يؤكد لوك على وجود تفكير الجوهر بصفة عامة إلا أنَّه يصرح بأنَّه لا يعرف عنه شيئاً، وقد كان من الممكن أنْ يرفض فكرة الجوهر باعتباره صاحب موقف تجريبي حسي، ولكنه يؤكد على أنَّها فكرة أساسية ورغم ذلك ممَّا ليست فكرة

بسيطة صادرة عن الحس أو التفكير، ومن هنا يتضح أنَّ فكرته عن الجوهر لا تتفق مع موقفه ولا تخدم قضية المذهب الحسي على وجه العموم[57].

5. أشار لوك إلى أنَّ العقل لا يدرك أي شيء إلا بواسطة الأفكار، فكيف يتسنَّى له أنْ يعرف أنَّ أفكاره مطابقة للأشياء الخارجية؟ أي بمعنى أدق ما هو معيار مطابقة الوجود للواقع؟ قد اكتفى لوك بإلقاء نظرة سطحية على الموضوع، ولجأ إلى الرأي العام الشائع بصحة المطابقة[58]. ففكرة الكرسي تتكوَّن بعد أنْ يعرف الإنسان الكرسي عن طريق جلوسه، وهذا ينطبق على كثير من الأفكار الموجودة في الواقع، وهذا يتماشى مع منهجه التجريبي.

6. أُخذَ على لوك أنَّه حسي دائماً، وهو مستعد للتضحية بالمنطق بدلاً من أنْ يكون متناقضاً، وهو يعلن مبادئ عامة ويصر على أنَّها مبادئ وعندما تظهر النتائج التجريبية لهذه المبادئ يمتنع عن قولها[59].

الخاتمة: بعد استعراض الباحثة نظرية المعرفة عند لوك توصلت إلى جملة من النتائج، أهمها:

1- أنكر لوك في المعرفة الأفكار الفطرية، فهو يرفض كل الأفكار والمبادئ الفطرية مبدياً أسبقية الحس على العقل حيث اعتقد أن لا وجود لأي شيء يسبق الحس في العقل.

2- اعتمد لوك في رفضه لهذه الأفكار الفطرية على حجة مفادها أنَّ العقل أو الذهن يولد صفحة بيضاء خالية من أية حروف، فهو يعتقد أنَّ الأفكار الفطرية هي مجرَّد أحكام مسبقة، وبالتالي يمكننا تحصيل المعرفة دون الاعتماد واللجوء إلى أية فكرة، لذلك فلو كانت هناك أفكار فطرية مطبوعة في النفس الإنسانية لكان الأطفال يعرفونها، فالطفل لا يمكنه التعرُّف على هذه المبادئ إلا عن طريق التعلم بمعنى أنَّه يجب أنْ يستند إلى الخبرة الحسية، فالعقل لا يستطيع إدراك تلك الآراء منذ يقظته في السنين الأولى من العمر بدليل أنَّ الأطفال يجهلونها تماماً، بمعنى لا

وجود لأفكار فطرية أو مبادئ مجرَّدة تظهر لدى الأطفال حديثي الولادة، فالطفل يولد دون أفكار مسبقة لأنَّ عقله خال من أفكار راسخة فيه.

3- يرفض لوك وجود أي مبادئ أخلاقية، فالمجتمعات تختلف من مجتمع لآخر، ومن عصر لآخر، ولو كانت هذه المبادئ فطرية ومحل اتفاق بين جميع الناس والمجتمعات، فوجود الله مثلاً: ليست فكرة يتفق عليها كل الناس، فلو كانت فطرية فماذا نفسر تلك المجتمعات الملحدة التي لا تؤمن بفكرة الله؟ ففكرة الفضيلة عنده ليست فطرية؛ لأنَّ الناس يتماشون حسب منافعهم ومصالحهم الشخصية، والسعي نحو اللذة والسعادة، ولو كان مبدأ الفضيلة فطرياً لكان جميع الناس فضلاء.

4- قدم لوك تفسيراً على مصدر الأفكار ألا وهو التجربة، وهي بدورها تتوقف على الإحساس عن طريق الحواس الخمس، فالتجربة هي المصدر الوحيد لكل معارفنا الإنسانية. فالمصدر الذي يزوِّدنا بالأفكار هو موضوعات الحس اعتماداً على حواسنا التي تنتزع مختلف الإحساسات الخارجية وتوصلها إلى عقولنا، فالعقل لا يفكر إلا فيما يحصل عليه من خلال ارتباطه بالإحساس.

5- لعبت الكلمات والألفاظ دوراً مهماً في نظرية المعرفة لدى لوك فقسَّمها إلى أسماء الألفاظ وأسماء الأعلام واستخدام الألفاظ العامة، ووضع لكل لفظ أو كلمة مدلولها الخاص.

6- قسَّم المعرفة إلى حدسية وبرهانيه وحسية و اعتقادية، فالأولى معرفة مباشرة والثانية استدلالية تعتمد على البراهين، والثالثة مبهمة وغامضة، أمَّا الرابعة فهي معرفة مقدَّسة لا يمكن إدراكها لا بالعقل ولا بالحواس. بل تأتي عن طريق الإيمان ومعرفتنا يجب أنْ تكون محدودة وفق الأفكار التي نمتلكها. فالمعرفة ما هي إلا اتفاق الأفكار أو اختلافها عن بعضها البعض.

هوامش البحث:

(1) ابن منظور، لسان العرب ، ج13، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، ط3، 1999، ص454.

(2) الفيروز أبادي، القاموس المحيط، ج1، مطبعة السعادة، مصر، د.ط، 1960، ص266.

(3) القاضي عبد الجبار، المغني في أبواب التوحيد والعدل ، ترجمة: إبراهيم مذكور، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، ط1، 1962، ص17-18.

(4) عبد الحميد الكردي، نظرية المعرفة بين القرآن والفلسفة، مطبعة المؤيد، السعودية، ط1، 1992، ص12-13.

(5) محمد زيدان، نظرية المعرفة عند مفكري الإسلام، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2001، ص59.

(6) علي جابر، نظرية المعرفة عند الفلاسفة المسلمين، دار الهادي ، الكويت، ط1، 2004، ص66.

(7) جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1973، ص392.

(8) المصدر نفسه، ج2، المرجع السابق، ص393.

(9) عبد المنعم الحفني، الشامل للمصطلحات الفلسفية، مكتبة مدبولي، القاهرة، ط3، 2000، ص275.

(10) مراد وهبة، المعجم الفلسفي، دار مأمون للطباعة، بيروت، ط3، 1977، ص368.

(11) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، الكتاب الثالث، ترجمة: محمد الشيخلي، مصر، د.ت، ص178.

(12) عزمي إسلام، جون لوك، دار المعارف، مصر، د.ط، 1964، ص17.

(13) ول ديورانت، قضية الفلسفة، ترجمة فتح الله محمد، مكتبة المعارف، بيروت، 1972، ص319، 320.

(14) زكي نجيب محمود، حياة الفكر في العالم الجديد، ط3، دار الشؤون المصرية، مصر، 1982، ص210.

(15) عبد الرحمن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة، الكويت، وكالة المطبوعات، 1979، ص67، 68.

(16) محمد ثابت الفندي، مع الفيلسوف، دار النهضة العربية، بيروت، د.ط، د.ت، ص139.

(17) هنترميد، الفلسفة أنواعها ومشكلاتها، ترجمة: فؤاد زكريا، مؤسسة فرانلكين، القاهرة، 1975، ص175.

(18) أحمد أمين، قصة الفلسفة الحديثة، ج1، مطبعة لجنة التأليف والنشر، القاهرة، 1936، ص202.

(19) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، دار الوفاء، الإسكندرية، د.ط، د.ت، ص259.

(20) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، ج2، د.ط، د.ت، ص373.

(21) محمد فتحي الشنيطي، المعرفة، دار الكتب للطباعة والنشر، القاهرة، 1981، ص110.

(22) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، مرجع سابق، ص260.

(23) كريم متى، الفلسفة الحديثة، عرض نقدي، دار الكتاب الجديد المتحدة، بيروت، د.ط، 2001، ص158.

(24) راوية عبد المنعم عباس، جون لوك إمام الفلسفة التجريبية، دار النهضة العربية، بيروت، 1996، ص65.

(25) وليم كيلي، رايت ، تاريخ الفلسفة الحديثة، ترجمة محمود سيد أحمد، التنوير للطباعة والنشر ، بيروت، لبنان ، ط1، 2010، ص165.

(26) محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي،الجزء الرابع، دار المعرفة الجامعية،السويس، د.ط، 1996، ص169.

(27) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، مرجع سابق، ص267.

(28) وليم كلي رايت، تاريخ الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص161، 162.

(29) يحيى هويدي، قصة الفلسفة الغربية، دار الثقافة للتوزيع والنشر، القاهرة، د.ط، 1996، ص63.

(30) زكي نجيب، قصة الفلسفة الحديثة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة ، مصر، د.ط، د.ت، ص215.

(31) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، مرجع سابق، ص268.

(32) ريتشارد شاخت، رواد الفلسفة الحديثة،ترجمة أحمد محمود، مكتبة الأسرة، مصر، د.ط، 1997، ص122.

(33) مهدي فضل الله ، فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة، بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، 1996، ص186.

(34) محمد قاسم ، مدخل إلى الفلسفة، دار النهضة العربية، بيروت، ط1، 2001، ص59.

(35) محمد ثابت الفندي، مع الفيلسوف ، مرجع سابق، ص153.

(36) فؤاد زكريا، نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للإنسان، مكتبة مصر، القاهرة، د.ط، د.ت، ص198.

(37) ايميل بريه، تاريخ الفلسفة، ج4، ترجمة جورج طرابيشي، دار الطليعة للطباعة والنشر ، بيروت، الطبعة الثانية، 1993، ص160.

(38) عادل ظاهر، نقد الفلسفة الغربية، الأخلاق والعقل، دار الشروق، عمان، د.ط، 1999، ص145.

(39) برتراند رسل، تاريخ الفلسفة الغربية، مرجع سابق، ص183.

(40) جون لوك، في الحكم المدني، ترجمة، ماجد فخري، اللجنة الدولية لترجمة الروائع، بيروت، د.ط، 1959، ص255.

(41) آندريه لالاند، موسوعة لالاند الفلسفية، ترجمة: خليل أحمد، بيروت، منشورات عويدات، 2001، ص466.

(42) أحمد عبدالمهيمن، نظرية المعرفة بين ابن رشد وابن عربي، دار الوفاء للشر، الإسكندرية، ط1، 2001، ص130.

(43) أزفلد كولبه، المدخل إلى الفلسفة، ترجمة أبو العلاء عفيفي، القاهرة، ط3، د.ن، 1995، ص233.

(44) جمال الدين بوقلي حسن، قضايا فلسفية، ج1، المؤسسة الوطنية للكتاب الجزائر، ط3، 1984، ص444.

(45) زكي نجيب محمود، دافيد هيوم، دار المعارف، مصر، د.ت، ص176.

(46) فاروق عبد المعطي، جون لوك، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1993، ص96.

(47) مهدي فضل الله، فلسفة ديكارت ومنهجه، دار الطليعة، بيروت، لبنان، ط2، 1986، ص155.

(48) ديكارت، مبادئ الفلسفة، ترجمة عثمان أمين، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ط1، 1969، ص266.

(49) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم، مرجع سابق، ص281، 282.

(50) عزمي إسلام، جون لوك، مصدر سابق، ص153.

(51) المصدر السابق، ص181، 182.

(52) المصدر السابق، ص192، 200.

(53) عبد الرحمن بدوي، موسوعة الفلسفة، مرجع سابق، ص376.

(54) توفيق الطويل ، أسس الفلسفة ، مكتبة النهضة للنشر والطباعة، القاهرة، الطبعة الثالثة، د.ت، ص244.

(55) إبراهيم مصطفى إبراهيم، الفلسفة الحديثة من ديكارت إلى هيوم ، مرجع سابق، ص196.

(56) زكي نجيب محمود، ديفيد هيوم، مرجع سابق، ص206، 207.

(57) زكي نجيب محمود، قصة الفلسفة الحديثة، لجنة التأليف والنشر، القاهرة، د.ط، 1936، ص215.

(58) محمد علي أبوريان، تاريخ الفكر الفلسفي، مرجع سابق، ص172.

(59) إبراهيم مصطفى إبراهيم ، الفلسفة الحديثة، مرجع سابق، ص294.